مقدمة لدراسة القبيلة في العراق في ضوء علم الاجتماع السياسي
(بنيتها ، ديناميتها ، دورها السياسي)

د. ياسين سعد محمد (البكري)
كلية العلوم السياسية / جامعة النهرين

تمهيد

تمثل القبيلة أهم البنى الاجتماعية في العراق والوطن العربي ، بحضورها وتاريخها ، بفعلها وانفعالها ، بتأثيرها وتأثرها ، بالموقف الرافض لها والمحمل لها تبعات الانغلاق والجمود ، أو المساند لها والمتعكز عليها والموظف لها في صراعات سياسية ذاتية أو مشاريع دولة .

القبيلة بالوصف السابق قد تؤلف إشكالية في الواقع العراقي والعربي ، وعدم وضوح في دورها ومكانتها ، في بنيتها وديناميتها ودورها السياسي ، وقد يكون عدم الوضوح ناتج من التجاهل ألقسري في فهمها من قبل الانتلجنسيا السياسية والثقافية العربية لردح طويل من الزمن ، تعاليا أو عدم إيمان بهذا الدور . والغريب إن المستعمرين الانكليز كانوا قد أولو القبائل اهتماما كبيرا لغايات الفهم والتوغل والتحكم وهو ما عبرت عنه المس بيل سكرتيرة الحاكم البريطاني للعراق في احد رسائلها سنة 1920، إبان تشكيل أجهزة الدولة العراقية بقولها: (سرني أن أجد نفسي موضع تقدير وزارة الداخلية والحكومة العربية عموما بوصفي المرجع الأول فيما يتعلق بالعشائر ، إنني كذلك حقا ، إذ إن معرفتي بالعشائر العراقية بصورة عامة تفوق معرفة أي شخص أخر بها ، ولا غرابة في ذلك إذا ما أدركنا مقدار ما بذلت من جهد وعلى مدى سنوات في مجال جمع المعلومات الخاصة بالموضوع وتبويبها)[1] . ولا أظنني مجانبا للصواب إذا قررت إنها لم تبذل هذا الجهد والوقت في جمع معلومات عن أسماء العشائر وأنسابها وأسماء شيوخها فقط ، بل إن الجهد الأساس كان منصبا على فهم وتحليل واقع العشائر والعلاقات المتحكمة فيها والصراعات بينها متجاوزة بذلك الرؤية الوصفية السطحية والدخول في بنيتها العميقة .

[1] ـ اليزابث بيرغوين ، جيرترووود بيل من أوراقها الشخصية ، ترجمة نمير عباس مظفر ، بيروت ،2002 ، ص324 .

في عملية تقصي الواقع الاجتماعي والسياسي العراقي والإشكالات التي تعتريه أو الحلول الواجب إتباعها ، قد تبدوا مقولة (فتش عن القبيلة)، مفتاحا ذهبيا لم نتعامل معه بشكل جدي لفتح الإجابات عن أسئلة مغلقة .

بحثنا هذا محاولة أولية لفهم القبيلة ، لفهم ديناميا‌تها من خلال تفكيك بنيتها والية عملها، ودورها السياسي عبر شواهد من تاريخ العراق الحديث ومقاربات ولمحات من الواقع العراقي بعد الاحتلال .

والسؤال الأساس الذي يحاول البحث الإجابة عنه هو ، هل للقبيلة أو العشيرة (وسترد المفردتان في البحث بشكل مرادف) دور ووظيفة اجتماعية وسياسية تقوم بها وما هو هذا الدور؟ أم إنها ، أي القبيلة ، من حفريات التراث والتاريخ ؟ .

أولا: مقاربة مفاهيمية (بين القبيلة و الأمة الإسلامية و القومية)

تؤلف القبيلة وتفريعاتها كالعشيرة[2]، مؤسسة علاقات قرابية، لم تستطع التشكيلات الأحدث والاشمل (الأمة بمفهومها الإسلامي ومفهومها القومي) أن تلغي وجودها المؤسسي والوظيفي والعصبوي.

في السياق التأسيسي لمفهوم الأمة الإسلامي والقومي كونت القبيلة حجر الزاوية فيهما أو النواة[3]، فمع إن الخطاب النظري للإسلام قد تجاوز هذا المفهوم، وعد الدين اطاراً تجميعياً ومفهوماً انسانياً يخترق العلاقات الأولية والقرابية، وأعطى للأخوة الإسلامية دلالة أكثر حضوراً، لكنَّ ذلك التنظيم بقي في الواقع العملي قاصراً، وبقيت المؤثرات العشائرية فاعلة حتى في أحرج

---

[2] **تقسم الأنساب إلى عدة طبقات، أعلاها الشعب الذي يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، فالأفخاذ ، فالعشائر، ثم الفصائل وأخيراً الرهط : للمزيد من التفاصيل ينظر: احمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم الابياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص14-16. وللمزيد عن مفهوم القبيلة ينظر: د. محمد نجيب بو طالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، الطبعة الأولى، سلسلة اطروحات الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002، ص53 وما بعدها.**

ويجب ملاحظة إن التقسيم السابق لا يتطابق مع ما موجود في العراق ، فالعشيرة طبقة أعلى من الفخذ.

[3] **في الطور المكي للدعوة الإسلامية كانت العشيرة المجال الحيوي الأول في إطار الكسب الإسلامي، والآية القرآنية ترشد الرسول (ص) إلى ذلك (وانذر عشيرتك الأقربين). سورة الشعراء، الآية، (214).**

اللحظات التاريخية، كما في مسألة استخلاف الرسول (ص) بعد وفاته، بحيث كان المنطق السائد في مؤتمر السقيفة والسجالات التي دارت بين المهاجرين والأنصار هو منطق القبيلة[4].

وهذا المنطق بقي فاعلاً في كثير من التشكيلات[5]، ومتداخلاً أو منضويا في صراعات قد يبدو شكلها الظاهري دينياً، أو طائفياً ضمن المنظومة الإسلامية عبر تاريخها. وهو ما ينسحب أيضاً على المنظومة القومية أو الحركة القومية منذ بروزها في القرن العشرين وصعوداً[6]. مع ان موقع القبيلة في الرؤية الإسلامية (الأمة الإسلامية)، جاء مختلفاً عن موقعها في الرؤية القومية، وربما جاز وصفهما بأنهما متناقضان، ففي حين إن التنظير الإسلامي جاء تفكيكاً للقبيلة، وداعياً إلى إلغاء المفاخرات والعصبيات القبلية، من منطلق الإنسانية (كلكم لآدم وآدم من تراب) و(لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

أما التنظير القومي للقبيلة فقد جاء بشكل تجميعي لها، على قاعدة الانتساب ألسلالي، أو الانتماء المعنوي بالولاء. ويحاول أن يجعل من الأمة القومية، القبيلة الأكبر، مع فارق مهم هو إن الولاء للقومية جاء مقروناً، بالولاء للأرض (الدولة القومية) أو (مشروع الدولة القومية)، أما في القبيلة فأن الولاء كان مفرغاً من عنصر الأرض، باعتبار إن الشكل التاريخي للقبيلة هو

---

[4] يذهب د. محمد عابد الجابري، بعد مناقشة مستفيضة للسجالات التي دارت في سقيفة بني ساعدة، إن المنطق السائد فيها كان منطق القبيلة، ولهذا جاء القول الفصل للعبارة التي فاه بها أبو بكر (لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش)، وهذا حكم موضوعي يقرر امراً واقعاً. وقد سلم الأنصار بذلك عندما تحرك فيهم مفعول القبيلة الضيق، أي التنافس بين الأوس والخزرج. للمزيد ينظر: د. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي ، محدداته وتجلياته،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت ،الطبعة الرابعة، 2000، ص136–137. كما يذكر د. محمد جابر الأنصاري: عندما قامت الردة في بدء الدولة كانت عبارة عن تمرد قبلي في قاعدة الدولة ضد قبيلتها القائدة قريش في القمة، بينما كانت الفتنة الكبرى إنشقاقاً عشائرياً في قمة الدولة بين أطراف القبيلة القائدة، سلطة ومعارضة. للمزيد ينظر: د. محمد جابر الأنصاري، التأزم السياسي عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام مكونات الحالة المزمنة، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، 1999، ص90.

[5] ظهر هذا التأثير في تأسيس الأمصار الإسلامية، فالقبيلة كانت هي الأساس الإسكاني في خطط المدن الأولى (البصرة، والكوفة والفسطاط).

شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، الجزء الأول، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1988، ص321.

[6] يذهب د. محمد جابر الأنصاري إلى إن أرومة العصبية والدموية كأنموذج تأريخي متجدد، ومنبعث بين مدة وأخرى، يكاد يكون قانونياً ذهبياً في تفسير وتحليل العديد من الظواهر الاجتماعية والسياسية والفكرية والمذهبية في ماضي وحاضر كثير من الأقطار العربية، فكلما واجه المرء في احد هذه الأقطار ظاهرة غريبة تستعصي في البدء على التفسير المنطقي، عليه أن يعتمد قاعدة (فتش عن القبيلة)، لأن التحليل النهائي سيؤدي إلى إدراك آثار الفعل والمفعول القبلي القادر على التسلل إلى أي موقع من مواقع النسيج الاجتماعي، والترسب في أعمق واصغر خلاياه. نقلاً عن:سالم لبيض، من اجل مقاربة سوسيولوجية لظاهرة القبيلة في= المغرب العربي، "المستقبل العربي" (مجلة)،بيروت، السنة الثامنة والعشرون ،العدد 261 ،تشرين الثاني ، ص47.

الشكل البدوي المرتحل، الباحث عن الماء والكلأ عنصري الديمومة والبقاء وبالتالي كانت الأرض متغيرا لم تشكل للبدوي رابطة نفسية وعاطفية .

في البنية الاجتماعية يمكن رصد ثلاثة انساق، أو بنى اجتماعية فرعية، متسلسلة زمنياً، من حيث الظهور التاريخي (قبيلة ثم امة إسلامية ثم امة قومية)، فضلاً عن إنها متداخلة، أي لم تستطع أي بنية إلغاء ما قبلها، لذا نجد البنى الفرعية السابقة ما زالت متجاورة، وفاعلة وتمثل مرجعيات، وانتماءات وربما حتى هويات متمايزة.

في عملية الانشقاق الاجتماعي السياسي الطائفي، والانشقاق الاجتماعي السياسي القومي في تاريخ العراق الحديث والمعاصر توجد صراعات و تعارضات طائفية بين الأطر الشيعية مقابل السنية، وقومية بين العرب والكرد، أما في عملية الانشقاق العشائري القبلي فان القبيلة تؤدي دوراً تفكيكياً للأطر الطائفية على أساس مذهبي، وللأطر القومية على أساس عرقي، أي إن التعارض القبلي في الأساس سيكون بين الوحدات المتناظرة مذهبياً وعرقياً، أي بين شيعة وشيعة، وبين سنة وسنة، وبين عرب وعرب، وبين كرد وكرد. وإذا ما استثنينا الانشقاق القبائلي المذهبي، باعتبار إن الخطاب النظري الإسلامي قد جاء تفكيكاً للبنية القبلية، أمكننا الحديث عن انشقاق قبائلي قومي يشكل حالة تعارض أنموذجية بين العرقية الواحدة، وباعتبار إن الخطاب القومي جاء تجميعياً للوحدات القبلية التي ترجع بأصولها إلى منبع واحد انتماءاً سلالياً أو معنوياً، وكما عبر عنها ابن خلدون بـ (العصبية)[7] التي قال عنها "إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه"[8] ، ومع إن مقولة العصبية عند ابن خلدون عدت قانون الانتقال من السلطة البدوية إلى السلطة الحضرية[9]، إلا إن ذلك القانون ليس قانوناً حتمياً أو فاعلاً بذاته دون شروط[10]، ونزعة البناء أو الالتحام في القبيلة تقابلها، أو توازيها نزعة الهدم أو الانقسام.

---

[7] كون العصبية عند ابن خلدون تعتمد على النسب أو ما في معناه مثل الموالاة، وتسير، أي العصبية، نحو غاية الملك، فقد عدها بعض الباحثين انها القومية بالمعنى الحديث، ينظر مثلاً: باتسميغا، العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ص244-245. نقلاً عن: سالم لبيض، المصدر السابق، ص52.

[8] ابن خلدون، المقدمة، ص141.

[9] محمود أمين العالم، مقدمة ابن خلدون: مدخل ابستمولوجي، "الفكر العربي" (مجلة)، القاهرة، السنة الأولى، العدد 6، تشرين الثاني، 1978، ص41.

[10] من الشروط أن يكون قد ظهر في القبيلة فرع غالب، مع ظهور زعامة تقوم بمهام القيادة، فضلاً عن عنصر العقيدة الدينية كما في مثال الإسلام ودور دعوة الرسول (ص) في تجميع قبائل الجزيرة العربية، أو في مثال الحركات والفرق الدينية كما في دولتي المرابطين والموحدين في المغرب. للمزيد ينظر: د. محمد عبد الباقي الهرماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، الطبعة الثالثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص17-18.

ثانيا: الدينامية الانقسامية للقبيلة / خلاصة نظرية

- **إن أي دراسة متفحصة لطبيعة المجتمع العراقي قد تخلص إلى إن الانشقاق الطائفي و الانشقاق القومي في المجتمع العراقي، تتعلق أسبابها بمؤثرات سياسية، وان البنية الاجتماعية كانت تأخذ دور المتلقي، وليس الباعث للتوترات، أي إن التوترات في البنية الاجتماعية هي انعكاس للتوترات في البنية السياسية، وبالتأكيد إن البنية السياسية ليست حالة أحادية، بل لها مضامين أخرى مادية كالاقتصادية مثلاً، وهو ما يعني في الخلاصة أن ليس هناك تعارضات اجتماعية ناتجة عن اختلاف وتنوع عرقي، عربي كردي أو كردي تركماني، وما يؤكد هذا التوجه إن هناك حالة تعارض في العرقية الواحدة في المستوى القبلي والعشائري، أو ما عرفت بالنظرية الانقسامية[11]، كإطار نظري يحاول تفسير حالة التعارض والصراع القبلي.**

تذهب الدراسات الخاصة بالنظرية الانقسامية وتطبيقاتها إلى تحديد عدد من الميزات للمجتمعات الانقسامية، منها[12]:

1. **وجود أشكال جماعية للملكية.**
2. **تمركز الحياة الاجتماعية حول العلاقات العائلية التي تكتسب أهمية قصوى.**
3. **قوة الوعي الجمعي، واشتراك الجميع بمنظومة قيم موحدة بسبب تشابه العناصر المكونة لهذه المجتمعات، كما إن الدين يقوم بوظيفة الضبط الاجتماعي لأنه يخترق جميع مستويات الحياة الاجتماعية.**

وفي مقاربة هذه الميزات وإسقاطها على المجتمع العشائري في العراق نلاحظ ما يأتي:

- **إن الإشكال الجماعية للملكية، تمثلت في المشاع العشائري، وعلى الرغم من إن نظام الطابو الذي ادخله والي بغداد العثماني مدحت باشا (1869–1872) قد أسهم في تحويل جزء كبير من هذا المشاع إلى ملكية خاصة لشيخ العشيرة، ومن ثم غير الموقع الاعتباري للشيخ من كونه أبوياً إلى حالة جديدة هي الإقطاعي، وتحول السلطان المعنوي له إلى سلطة مادية، فأن**

---

[11] حسب علمنا لا توجد هناك دراسات ناقشت الظاهرة القبلية والعشائرية في العراق على وفق النظرية الانقسامية، على عكس الحالة في المغرب العربي، حيث أخذت النظرية مجالاً واسعاً في التطبيق على القبائل المغربية، لذا فأن البناء النظري للانقسامية مقتبس من الكتاب المغاربة. وعموماً فأن مناقشتنا هنا لن تأخذ شكلاً تطبيقياً للنظرية على البنية العشائرية في العراق، بل سنكتفي ببعض المقاربة لتسليط الضوء، وتحليل ظاهرة التعارض العشائري.

[12] ليليا بنسالم وآخرون، الانتربولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988، ص11–12.

ذلك لم يؤدِ إلى تحلل النظام العشائري لوجود عناصر أخرى، قيمية وعرفية، استطاعت أن تحافظ على البنية العشائرية لعقود بعد هذا الإجراء، بل وانتقلت نظمها إلى المدينة بعد أن هاجر الكثير من الفلاحين العشائريين في الجنوب، وخصوصاً من محافظة العمارة، إلى المدينة تحت ضغط الاستغلال الإقطاعي لشيوخ العشائر في العهد الملكي، والسبب في هذا النقل القيمي هو تمركز الحياة الاجتماعية حول العلاقات العائلية، وقوة الوعي الجمعي الناتج عن انغلاق الفضاء العشائري في بيئته الأصلية.

أما وظيفة الضبط الاجتماعي للدين فيمكن ملاحظتها في الدور والمكانة التي يتمتع بها (السادة) في البيئة العشائرية في الجنوب، وزعماء الطرق الصوفية في البيئة العشائرية في كردستان.

بعد هذه المقاربة بين ميزات النظرية الانقسامية والواقع القبلي العشائري في العراق، يمكن أن نحدد منطوق النظرية، وهي: "إن النظام القبلي المعتمد على أنموذج البنى الانقسامية هو في العموم نظام المعارضات المتوازنة، فهو لا يسمح بوجود سلطة مركزية في قبيلة معينة، إن السلطة موزعة في كل نقطة من البنية القبلية، والسلطة السياسية هي سلطة محددة وتشترك فيها القسمة بأكملها أو القبيلة، فلا يمكن مثلاً للسلطة أن تتمركز في يد شيخ واحد من شيوخ القبيلة، وبخاصة إن المبدأ الأساس لدى القبائل (البنية القبلية) هو معارضة القسمات بعضها لبعض"[13]. برأي الانقساميين أن للقبائل العربية الخصائص نفسها التي تميز المجتمعات الانقسامية "ويقوم التوازن الاجتماعي في المجتمع الانقسامي على مبدأي: الانصهار والانشطار، حيث يكونان حالتين من حياة الجماعة، تظهر الأولى في حالات الخطر وفقدان الأمن، فسيود التضامن والتوحد لمواجهة التهديدات الخارجية، وتظهر الثانية في حالات السلم والهدوء حينما يدب الصراع بين الفروع القبلية والقسمات المتجاورة"[14].

ولتوضيح دلالة الانقسامية بشكل اكبر يستعير منظروها المثل العربي، أنا ضد إخوتي، وأنا وإخوتي ضد أعمامي، وأنا وإخوتي وأعمامي المباشرين ضد الموازين الأبعد ونحن جميعاً ضد العشيرة الغريم في المجموعة، والمجموعة بأكملها ضد المجموعة المجاورة[15].

إن تراتبية الصراع والتعارض في هذا المثال تبدأ من المستوى الأدنى، وينتهي التعارض مؤقتاً ليحل محله التضامن الآلي في المستوى الأعلى في حالة مواجهة خطر ما. ولهذا فأن

---

[13] سالم لبيض ،المصدر السابق ، ص71-72.

[14] د. محمد نجيب أبو طالب، المصدر السابق، ص43.

[15] سالم لبيض، المصدر السابق، ص73.

القانون الأساس هو التعارض والصراع، ومن هنا فأن البنية القبلية والعشائرية هي بنية تفكيكية، تميل إلى الانشطار لا إلى الاندماج، وبعد ذلك ليس غريباً، إن الحركة القومية مع إنها اعتمدت منطق الدم المشترك، والانحدار ألسلالي الواحد، وهو المنطق الأكثر حضوراً في البنية القبلية، إلا أن تلك البنية لم تكن قاعدة مهمة من قواعد الحركة القومية[16].

ثالثا: التوظيف البريطاني للانقسامية في العراق الملكي

وظف البريطانيون بعد احتلالهم للعراق، الانقسامية وحالة التعارض في النظام العشائري لإدامة نفوذهم إزاء الملك فيصل الأول، وكانوا يستخدمون مجموعة أو أخرى من رؤساء العشائر لكبح أي انحراف محتمل للملك عن خطوطهم وسياستهم،ففي المرحلة التي اخذ فيها الملك فيصل الأول يحاول التقاطع مع مشروع الانتداب البريطاني على العراق ، قام الشيخ عداي الجريان من شيوخ البو سلطان وخمسة عشر شيخا من شيوخ الفرات الأوسط بالاحتجاج بشدة وأعلنوا في برقية إلى المندوب السامي البريطاني تؤكد دعمهم للانتداب، وهو عين موقف شيوخ بني ربيعة ، كما إن الشيخ علي السليمان ومجموعة من شيوخ الغربية ذكروا الملك في لقاء معه بانهم اقسموا على الولاء له شرط يقبل بالتوجه البريطاني [17] ، ولم يفسر الملك فيصل الأول مواقف شيوخ العشائر تلك بوصفهم على إنهم دمى بيد الانكليز ، بل فسرها وكما صرح هو سنة 1927 ، كونهم حاولوا الاستفادة من أية خلافات بين الانكليز والملك لإضعاف الطرفين وتقوية مواقهم وتجنب دفع الضرائب [18].

ولم يكن الملك وحده المستهدف دائماً، بل كانت هذه السياسة توجه ايضاً إلى الشيوخ والأغوات من اجل إعادة توازن القوى إذا ما تمرد شيخ أو أغا، أو أصبح قوياً إلى درجة غير مريحة، أو إذا تحدى سلطة الملك في وقت غير مناسب[19]. لم تقف السياسة العشائرية للبريطانيين عند هذا الحد، بل كانت موجهة ضد المدن والبلدات، المراكز الحقيقية لمعارضة الحكم البريطاني، والمراكز الحقيقية للفكر القومي أيضا. لذا عمد البريطانيون لتدعيم الانقسامية العشائرية، بان حاولوا تأكيد خصوصية وانعزال المناطق العشائرية، وتقوية مركز شيوخ العشائر،

---

[16] مما له دلالة في هذا الشأن إن الدول التي أنشئت في الجزيرة العربية، الوطن ألتأريخي للعرب، وذات النظم القبلية، لم تشهد حركة قومية، بالمفهوم المعروف في سوريا والعراق ومصر، وحتى في العراق، فأن الحواضر هي من مثلث حواضن الحركة القومية، وليست المناطق الريفية ذات التنظيم القبلي والعشائري.

[17] -د. سليم الوردي،ضوء على ولادة المجتمع العراقي،سلسلة كتاب الصباح الثقافي،العدد 15، 2009 ،ص67.

[18] - المصدر نفسه ، ص 67 .

[19] - للمزيد عن السياسة العشائرية للبريطانيين في العراق ينظر: حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، ص117-118.

عن طريق قانون النزاعات الجنائية والمدنية العشائرية الذي استثنى المناطق العشائرية من نطاق سلطة المحاكم الوطنية، ومنح أعرافهم وتقاليدهم قوة الإلزام[20].

ولإعطاء تصور عن حجم العالم العشائري في العراق يذكر حنا بطاطو انه "كان في ولاية بغداد وحدها [في القرن التاسع عشر] 110 عشائر"[21]، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن بغداد هي المركز الحضري الأول في العراق، وان موقعها يتوسط دجلة والفرات، ومعزول نسبياً عن الصحراء مصدر البداوة والنظام البدوي، أمكن لنا أن نستنتج سعة العالم العشائري في عموم العراق ، وفي إحصائية أوردها الدكتور سليم الوردي يشير فيها إلى انه في العام 1905 كانت نسبة عشائر البدو والأرياف 76% من سكان العراق ، وفي العام 1957 كانت 59% من سكان العراق[22] . ويضيف بطاطو أثناء حديثه عن العلاقات بين عشائر ولاية بغداد ما نصه "إن الغزوات والغارات المتبادلة، كانت هي السائدة إلى حد غير قليل"[23]. ويلاحظ بطاطو إن هناك نظرة طبقية تخلق تراتباً اجتماعياً بين العشائر، فهناك العشائريون الفلاحون، وهناك، المعدان وهناك الشاوية رعاة الغنم والإبل، وهذه الفئة الأخيرة كانت تكون الارستقراطية العشائرية، وهم يزدرون بتعجرف كل العشائر الأخرى[24].

لذا يمكن عد النشاط الاقتصادي ونوعه، وحجم الملكية عاملاً مهماً في خلق حواجز اجتماعية، وتنوع طبقي، أو شبه طبقي، داخل البنية الاجتماعية المتماثلة عرقياً، وحتى الغزوات التي ذكرها بطاطو، في حال افتراض وجود انقسام مذهبي بينها، فلا يمكن إرجاعها إلى عوامل طائفية، كون الغزو في المفهوم البدوي ظاهرة اقتصادية في الأساس، بصرف النظر عن التماثل أو الاختلاف العرقي والمذهبي[25].

في العهد الملكي شهد العالم العشائري انتفاضات وتمردات عدة ذات نطاق محلي محدود، مثل انتفاضة الفلاحين من آل فتلة في الشامية وأبي صخير ضد شيوخهم من آل فرعون عام 1921-1922، وانتفاضة فلاحي سوق الشيوخ عام 1935، وانتفاضة فلاحي البومتيون المسلحة عام 1946 ضد الإقطاعيين من آل الياور في الموصل، وعصيان آل ازيرج عام 1952 ضد

---

[20] للمزيد من التفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص119-120.

[21] المصدر نفسه، ص33.

[22] ـ د.سليم الوردي ، المصدر السابق ، ص53 .

[23] حنا بطاطو ، المصدر السابق، ص33.

[24] المصدر نفسه، ص37.

[25] للمزيد من التفاصيل حول اقتصاد الغزو البدوي، ينظر: د. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون. العصبية والدولة. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، الطبعة السادسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص263 وما بعدها.

الإقطاعيين في العمارة، وانتفاضة فلاحي دزه يي في اربيل عام 1953، وانتفاضة فلاحي هورين شيخان في ديالى، وانتفاضة فلاحي وارماوه في السليمانية ضد الإقطاعيين، ونماذج أخرى استمرت في الأعوام 1954و1955و1956، 1958 [26].

الملاحظ على الانتفاضات السابقة إنها كانت من طبيعة ومسار وشكل واحد، فالأسباب الاقتصادية، وعامل الاستغلال من قبل الشيوخ والأغوات الإقطاعيين، كانت المحرك الأساس لها، كما إنها حدثت في ذات الفئة العرقية والمذهبية المتماثلة، أي بين الفلاحين العرب الشيعة ضد الشيوخ الإقطاعيين العرب الشيعة، وبين الفلاحين العرب السنة ضد الشيوخ الإقطاعيين العرب السنة، وبين الفلاحين الكرد السنة ضد الأغوات الإقطاعيين الكرد السنة. فضلاً عن إن السلطة وفي جميع الحالات، تدخلت عبر العنف لصالح الشيوخ والأغوات الممثلين لشبكة تحالفات السلطة، بصرف النظر عن كونهم عرباً أم كرداً، شيعة أم سنة والمقموع دوماً هو الخارج على مصالح السلطة وحلفائها، بصرف النظر عن كونه عربياً أم كردياً، شيعياً أم سنياً. ولا يعني ذلك انه لم تكن للسلطة تميزات بين الفئات القومية والطائفية في السياق العام لسياستها، وهذا السلوك الخاص، نابع من ضرورات السلطة وواجبها إزاء حلفائها، فلكل سلطة وكلائها وحلفائها المغايرين لها عرقياً ومذهبياً، ولكل سلطة أيضا معارضيها المماثلين لها عرقياً ومذهبياً.

تتوضح الانقسامية من حيث كونها تعارض وتوازن، في الأحلاف العشائرية يشير حنا بطاطو، إلى أن الروابط بين عناصر الأحلاف العشائرية عموماً "كانت ضعيفة، وان الإحساس بالتحالف لم يكن ثابتاً، وعلى سبيل المثال فأن المنتفق التي كانت إحدى أقوى التجمعات العشائرية شبه المستوطنة، كانت تتألف من ثلاثة أقسام هي بنو مالك والأجود وبنو سعيد، ولم تكن هذه الأقسام عشائر، بل كانت مجموعات عشائرية، وكانت هي نفسها، تحتوي على أحلاف اصغر، مثل بني خيكان والمجرح ضمن مجموعة بني مالك العشائرية، وتشير النزاعات التي لم تهدأ ابداً بين هذين التحالفين إلى مدى الهشاشة التي كانت عليه وحدة المنتفق، وكذلك فقد كانت هنالك مواجهات دموية مماثلة بين أطراف بني لام العشائرية غير المستقرة هي أيضا، وكانت الخلافات الداخلية تمزق أيضا عشيرة طي، وكانت الأجنحة الكبرى داخل شمر تتجمع معاً تحت اسم الصايح، وكانت بشكل عام على نزاع مع جربه

---

[26] للمزيد من التفاصيل عن هذه الانتفاضات ينظر:ليث عبد الحسين الزبيدي، ثورة 14 تموز 1958 في العراق، ص33؛ زكي خيري، ملاحظات أولية عن الاصطلاح الزراعي المنشود في العراق، مطبعة الشعب، بغداد، 1974،ص45-47.

المسيطرة، وكانت عشيرتا مير يوسفي ومير محملي من روافد البابانيين، تغزو إحداهما الأخرى تكراراً"[27].

هذا الاقتباس على طوله يوضح مدى التعارض والانقسام والصراع بين الفئات المتناظرة عرقياً ومذهبياً، وهي الحالة السائدة في البنية العشائرية، وتبقى عملية التحالف والتوافق مؤقتة وشكلية، إلا في حالة الضرورة، والتي عبر عنها بطاطو بالتهديد الخارجي، أو مشروع غزوه مشتركة، فقد كانت التحالفات العشائرية تظهر من اجل الحرب[28].

رابعا: الانقسامية القبائلية والحركة القومية الكردية

في الجانب الكردي، كانت للروح العشائرية، وقانون الانقسامية دور كبير في تشتيت الحركة القومية الكردية، وإضعاف مطالبها حتى عد الصراع الداخلي بين العشائر الكردية عاملاً في إزالة الإمارات الكردية، إذ وظف العثمانيون هذا الانشقاق لمصلحتهم، وكان معظم أفراد الجيش العثماني الذي قام بمهاجمة الإمارات الكردية، مؤلفاً من جنود الأمراء الكرد أنفسهم، وان اشد المتحمسين لهذه الحرب والساعين أليها كانوا من الكرد[29]. وصورت المس بيل، علاقة الزعماء الكرد فيما بينهم في عهد الانتداب البريطاني بقولها: "ويكره كل فرد منهم الأخر كما يكره الشيطان"[30]. وكان للخلافات والتنافس والتحاسد العشائري بين عشائر البرزنجية والطالبانية والبابانية، دور في إفشال حركات الشيخ محمود الحفيد البرزنجي، وحلمه في إقامة دولة كردية بزعامته.

خلاصة العرض السابق تشير إلى أن الانقسام والانشقاق العشائري بين الفئات المتماثلة عرقياً ومذهبياً، يمثل الظاهرة الأساس في عملية الصراع الاجتماعي في العراق، ولأسباب ودوافع بنيوية ذات مستويات عدة، اقتصادية وسياسية وعرفية ومعنوية قيمية، مثل المكانة الاجتماعية وسمعة العشيرة، وطلب السيطرة والنفوذ للعشائر ذات الإمكانات والمؤهلات، أو محاولة الفكاك من السيطرة والنفوذ بالنسبة للعشائر الخاضعة.

إن هذا الانشقاق والانقسام والصراع بين العشائر المتماثلة عرقياً ومذهبياً، يقلل من فعالية ودعاوى وطروحات التعارضات والصراعات بين القوميات والطوائف المختلفة في العراق، على أساس قاعدة التنوع. بعبارة أخرى، إن للصراعات والتعارضات بين القوميات والطوائف أسباب

---

[27] حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، ص93.

[28] المصدر نفسه، ص94.

[29] محمد أمين زكي ،خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى ألان،ترجمة محمد علي ،مطبعة السعادة، مصر، ، ص219.

[30] نقلاً عن: د. كمال مظهر احمد، كركوك وتوابعها حكم التاريخ والضمير، الجزء الأول، مطبعة رينوين، ص129.

ودوافع لا تتعلق بالتنوع، أو برفض اجتماعي يصور المختلف عرقياً أو مذهبياً (كآخر) و(غير) و(نقيض)، أي بالعرقية كعرقية، وبالمذهبية كمذهب، بل تنطلق تلك الصراعات من أسباب ودوافع سياسية ذات مضامين اقتصادية.

خامسا: التطبيق الأمريكي للانقسامية

مجالس الصحوة وتشطير الفضاءات الطائفية الجامعة

من خلال العرض السابق في ديناميات الحركة القبائلية والعشائرية في الالتحام والانقسام سنحاول تفسير إستراتيجية الولايات المتحدة في تبني الصحوات العشائرية .

بعد احتلال العراق بدأت الاستقطاب الطائفي يتشكل عبر ظواهر متناثرة ، وكانت الشعارات المؤكدة على وحدة السنة والشيعة والتي ظهرت في شوارع بغداد بعد أيام من الاحتلال تؤكد أن هناك خشية حقيقية ومحاولة لاحتواء الطائفية ، وفي جانب أخر قد تكون هذه الشعارات بداية لإبراز الطائفية ومحاولة للتمهيد لها خصوصا وان هذا التوجه وان كان غير أصيل في المجتمع العراقي ، إلا انه وجد تغذية بعد حرب الكويت وتداعياتها من قبل السلطة الحاكمة ومن قبل المعارضة ، وشهدت تصاعدا ابتداء من مجلس الحكم والمحاصة السياسية الاجتماعية ،التي تفرعت إلى كل مفاصل الدولة على شاكلة ذلك المجلس، لتصل الحالة الطائفية إلى ذروتها بعد أحداث تفجيرات مرقد الامامين العسكريين في سامراء شباط 2006 ،مع كل ما تختزن من شحنة عاطفية وغياب الوعي بفعل ألاشعور الجمعي والمخاوف التي سيرت السلوك السياسي والشعبي في حالات انتقام وانتقام مضاد ، وإعلام و إعلام مضاد ، ليتحول الانقسام إلى اقتتال طائفي مفتوح ومدعوم من أطراف خارجية ،بوصف العراق بعد الاحتلال أصبح ساحة لصراع تداخلت وتواجدت فيه كل العوامل الداخلية والإقليمية والدولية .

المشهد العراقي بعد ذلك أصبح تفكيكيا بامتياز خصوصا مع توالي وتصاعد حالة التهجير الطائفي ، لتشهد المحافظات ذات الأغلبية المذهبية حالة تطهير إزاء الأقلية دون أن تواجه كبير عناء ، غير إن الإشكالية كانت في المحافظات المختلطة والمتوازنة مثل ديالى ، ومع ذلك كان الصراع الحقيقي في العاصمة بغداد التي عرفت حالة انقسام طائفي في الأحياء السكنية ، وإذا كانت التقسيمات العامة تصبغ الرصافة بلون معين والكرخ بلون أخر ، فأن تلك الأقسام كانت تعرف أحياء من لون مغاير .

الاقتتال الطائفي كان المعلم الأبرز الذي يهدد الشعارات الأمريكية في العراق من قبيل (الديمقراطية والأعمار) ،أو ما يعرف بنواة (الشرق الأوسط الكبير) ،الذي طرح العراق كمقدمة أو

كأنموذج له سيدفع المنطقة إلى اللحاق به عبر نظرية الدومينو ،وكان يهدد مسؤولية الولايات المتحدة (الأخلاقية والقانونية) إزاء البلد المحتل ويضع مصداقيتها الدولية ومصداقية مشروعها على المحك ، وبالتالي قد تواجه وضعا من ناحية الهيمنة والنفوذ والانعكاسات النفسية والخسائر المادية أصعب من الوضع الذي واجهته في فيتنام ، لذا بات الاقتتال الطائفي حجر العثرة الأساس، ولا يعني ذلك إن إستراتيجية التفتيت الطائفي لم تكن من متبنيات الاحتلال الأمريكي على قاعدة فرق تسد ،ولكن ، وربما إن إستراتيجية الفوضى البناءة قد انبتت اذرعا منفلتة دون نسيان الدور الإقليمي في تأجيج النعرات الطائفية .

هذا من جانب ، ومن جانب أخر كانت الولايات المتحدة تواجه وضعا صعبا في الانبار من جراء هجمات الجماعات المسلحة السنية ذات الأيدلوجية الإسلامية أو المغلفة بغلاف إسلامي أو من تنظيم القاعدة ، ولم تفلح الولايات المتحدة في الحد من أعمال هذه الجماعات أو التفاوض معها، بحيث كانت معادلة الصراع معادلة صفرية لا تسمح بالحلول الوسط ،جراء اعتماد هذه الجماعات على الرؤية الإسلامية في الجهاد بوصفه فرض عين ، والروح الاستشهادية التي كانت تسير أتباع هذه الجماعات . تلك الروح التي وجدت في العوامل الموضوعية للواقع العراقي والعربي والإسلامي ،من احباطات وقمع واحتلال وهزيمة نفسية ووجدانية وسياسية، وعوز اقتصادي وبطالة ، عوامل تغذي هذه الروح ، وبالتالي أصبحت المواجهة مع هذه الجماعات عملا استنزافيا للقوات الأمريكية، خصوصا وان معايير الربح والخسارة مختلف بين الطرفين. لذا غيرت الولايات المتحدة من إستراتيجيتها في التعامل مع هذه الجماعات الجهادية، وانتقلت من المواجهة المباشرة التي لم تجد نفعا طوال سنين إلى محاولة إزاحة هذه الأيدلوجية .

إن العمل في إطار الشعارات الإسلامية من جانب الأحزاب المنخرطة في العملية السياسية ،أو في جماعات المقاومة المسلحة، أو الإرهابية، كان قد خلق نسقا إسلاميا لهذه القوى ذات الخطاب الديني، تجاوز النسق العشائري ، وفي عين الوقت أصبح الانقسام في العراق رأسيا على أساس الطائفة الدينية ، وهو ما جعل رجال الدين في رأس الهرم من حيث التأثير والهيمنة ، و كل ذلك غيب العنصر العشائري ورؤساء العشائر الذين وجدوا أنفسهم على الهامش دون أن يكون لهم القدرة على تغيير موازين القوى ما افقد العشائر سلطاتها وفعاليتها التقليدية لصالح القوى الدينية التي تفجر بينها صراع طائفي.

لقد انتقلت الإستراتيجية الأميركية في العراق من مرحلة تفجير النزاع الطائفي –أي وضع طائفة بعينها في مواجهة عنفية مع طائفة أخرى– إلى مرحلة "تفجير النزاع داخل الطائفة" الواحدة

من خلال اللعب على مفعول العشيرة ،وهذا الانتقال لا يمثل اختراعا في الوضع العراقي، إنما إعادة اكتشاف لديناميات الانقسامية العشائرية ، تلك الدينامية التي طبقها الانكليز الذين توجهوا لكسب ود شيوخ العشائر، وإعادة الهيبة لهم، والاعتماد عليهم في إضعاف نفوذ الملك فيصل الأول .

شكلت محافظة الانبار نقطة البداية في تشكيل مجالس الصحوة ، والمعروف إن الانبار هي من المحافظات ذات الصبغة المذهبية الواحدة، أي لم تشهد أعمال عنف طائفي ، غير إنها عرفت بالحاضنة للجماعات المسلحة، ولتنظيم القاعدة ،وبهذه الصفة كانت هدفا أنموذجيا للقوات الأمريكية في تطبق الإستراتيجية الجديدة ، فالإيديولوجية الإسلامية كانت هي القائدة لتحريك الوضع هناك، وتمثل الانبار فضاء عشائريا ممتدا وهي بهذه المواصفات تمثل أنموذجا يحمل النقيضين،أي الإيديولوجية الإسلامية التجميعية، والفضاء العشائري الانقسامي .

راهنت الولايات المتحدة على الانقسامية العشائرية في إزاحة الجماعات المسلحة الإسلامية من الانبار، واستطاعت أن تحرك مفعول العشيرة التاريخي (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب)،والقاعدة هي من أصبحت الغريب بسلوكها المتجاوز والطاغي والقامع للعشائر وشيوخها، واستطاعت الولايات المتحدة بهذه الإستراتيجية أن تكسب مواقع مهمة لم تستطع قواتها العسكرية أن تحققها طوال سنوات .

إن تجربة الصحوات وباعترافات أمريكية تؤكد إنها انجح صفقة في حرب العراق، واستطاعت أن تؤمن منطقة عدت منطقة قتل للقوات الأمريكية بامتياز ، ويكفي هنا للتدليل على هذه الحقيقة الرجوع إلى إحصائيات الخسائر الأمريكية التي كان أكثرها من هذه المنطقة ، والتراجع الواضح في هذه الخسائر بعد تبني الصحوات العشائرية.

إن تطبيق الانقسامية العشائرية لتفتيت البني الإسلامية التجميعية التي استخدمتها الجماعات المسلحة السنية أتت أكلها وهنا يطرح سؤال بشقين ، الأول ما مصير المناطق السنية التي طبقت بها الصحوات لمواجهة القاعدة ؟، والشق الثاني هل ستحاول الولايات المتحدة تعميم التجربة على المناطق الشيعية ؟.

الإجابة على الشق الأول وبالاعتماد على النظرية الانقسامية العشائرية تشير إن المستقبل القريب سوف يشهد صراعات داخل مؤسسة الصحوة بحيث تتشظى إلى كيانات اصغر وكل كيان يمثل عشيرة ، بعبارة أخرى إن مجلس صحوة الانبار المعتمد على قبيلة الدليم كعنوان أساس سوف ينقسم إلى مجالس على أساس العشائر والأفخاذ وهو مسار طبيعي في ديناميات العشائر من اجل امتلاك الهيمنة والنفوذ وعدم التنازل من قبل رؤساء العشائر والأفخاذ عن صلاحيات

نفوذهم ، فإذا كانت مرحلة القتال مع القاعدة عنصر تجميع على أساس مقولة أنا وأخي وابن عمي بمواجهة الخطر الغريب ، فالمرحلة القادمة ستكون مسارا للتفتيت على نفس المقولة ولكن بغياب متغير(الغريب) الذي يعد أصرة التجميع والتوحيد، مما يؤدي إلى التشظي بغيابه ، فتنقلب المعادلة إلى أنا مع أخوتي ضد ابن عمي ونزولا في التقسيم إلى مرحلة أنا فوق الجميع، ذلك يعني أن تكون لكل عشيرة أو فخذ منطقة نفوذ ، تلك الرؤية لا تتعارض مع المشروع الأمريكي السائر نحو التفتيت إلى كانتونات صغيرة يسهل قيادتها واللعب بها بمواجهة الحكومة المركزية، وهي مرحلة تتجاوز مرحلة التفتيت على أساس فدرالي أو طائفي ، فإذا كانت مرحلة التفتيت على أساس طائفي قد خلقت حالة فوضى وانعدام الأمن وتحول الأمريكان فيها من محتل غير مرغوب فيه، إلى عنصر مرغوب فيه للحفاظ على التوازنات ، فان مرحلة الكانتونات العشائرية ستحقق الأمن مع بقاء الأمريكان على مكاسبهم كعنصر مرغوب فيه للحفاظ على التوازنات ، وتلك النتيجة هي ما تسعى إليه أمريكا في محاولة تعميم التجربة إلى المناطق الشيعية ، غير إن المعضلة الأساسية التي ستواجه الأمريكان في مناطق الفرات الأوسط والجنوب إن تلك المناطق مستقطبة بشكل نفسي وتاريخي في مسالة المظلومية الشيعية باتجاه الطائفة ، وما يعزز تلك الحالة وجود المناسبات الدينية الكثيرة للشيعة التي تخلق انجذابا نفسيا وتماهي تؤكد حالة الوحدة الشيعية ظاهريا ، وهو ما تراهن عليه الأحزاب الشيعية وتوظفه بشكل جيد ، غير إن ذلك لا يمثل سوى البنية السطحية للعلاقة بين الأحزاب والتيارات الشيعية، إذ إن الانقسام حالة بدأت تطفو على السطح وعلى أكثر من محور ، فهناك صراع على قيادة الشيعة (الصراع العام)، المجلس الإسلامي والتيار الصدري ، وهو صراع له جذور عائلية (عائلة الحكيم ، عائلة الصدر) ،فضلا عن جذور طبقية ، وهناك صراع الثروة (المحلي) وخصوصا في البصرة والمتمثل بالمجلس والصدري والفضيلة كعناوين أساسية فضلا عن عناوين اصغر ، وهناك صراع على مناطق المراقد المقدسة (صراع النفوذ والثروة الدينية) ، النجف ، كربلاء ، الكاظمية .

تلك المعطيات بالإضافة إلى اختلاف نمط العشيرة في الفرات الأوسط والجنوب عنه في المناطق الغربية (في الأولى نمط العشيرة الزراعي ، وفي الثانية نمط العشيرة الرعوي) قد تؤدي إلى تعويق تجربة الصحوة إلى المناطق الشيعية إلى حين، دون أن يعني ذلك عدم إمكانية تطبيق تجربة الصحوة ، فديناميات الانقسامية القبلية لها مساراتها الطبيعية وحركتها الضرورية النابعة من بنية القبيلة ذاتها ، وهو ما يستثمره رئيس الوزراء نوري المالكي بتبنيه مجالس الإسناد في مواجهة خصومه السياسيين من طائفته .

إن الانشقاقات القبائلية قد يكون لها مضمون مناقض للمضمون الذي طرحناه في الرؤية الأمريكية ، أي التفتيت إذا أحسن توظيفها، فتلك الانشقاقات قد يكون لها دور مستقبلي لبناء الوحدة العراقية من خلال بلورة هوية وطنية لعرب العراق، يتم بها تجاوز حالة الانقسام الطائفي (الشيعي ، السني) وهو انقسام قد يجد إيحاءات لحمته بالصراع القومي مع التيارات والأحزاب الكردية، وهو ما قد يخلق حالة تضامن عشائري عربي متجاوزا الانقسام العشائري والطائفي ، ولكن بشروط منها نمو تيار وطني يخترق العوازل الطائفية ،ويفتت حالة الانغلاق والهويات الطائفية، فضلا عن قيام حكومة مركزية قوية في بغداد تتمكن من شد الأطراف، وتكون موازين القوى في صالحها في مقابل أي مجموعة قبلية أو عشائرية ، دون أن تعني المركزية حالة نكوص إلى شكل متعسف ومحتكر للصلاحيات الإدارية التي يمكن أن توزع على المحافظات كشكل فدرالي إداري يسهل عملية الإدارة ويقلل من حلقات الروتين في انجاز اعمار المحافظات وتنميتها ويقلل من شكوك وغلواء الفدرالية على أساس أقاليم واسعة ومشكلة على أساس طائفي .

الخلاصة

من خلال العرض السابق نستطيع تحديد الأفكار الرئيسة حول القبيلة في العراق ، فهي الوحدة الأساسية والأولية في تشكيل المجتمع العراقي وبالرغم من ظهور وحدات اجتماعية أخرى في أزمان تاريخية لاحقة على القبيلة ، كمفهوم الأمة الإسلامي ومفهوم الأمة بشكله القومي ، إلا إن تلك الأشكال لم تستطع أن تلغي القبيلة ، وتراوحت العلاقة بينهما من التوظيف والاستثمار إلى الصراع، دون أن تستطيع أي منها أن تلغي القبيلة التي بقيت مع كل أشكال التحولات السياسية والاقتصادية والحداثية عنصرا قارا وثابتا في معادلة الوجود الاجتماعي، دون أن يعني ذلك ثباتا في فعاليتها التي تراوحت هي الأخرى عبر التاريخ بين الوجود الطاغي والمهيمن إلى الهامشية .

لعبت القبيلة عبر تاريخها أدوارا عدة وخطيرة أحيانا ، وعلى الرغم من وضوح بنية القبيلة وهياكلها وتقسيماتها بالإضافة إلى تعدد مستويات الوظيفة التي اضطلعت وتضطلع بها ، إلا إن هناك تعقيدا في الديناميات المحركة لها وبالتحديد الديناميات السياسية من ناحية علاقة القبيلة بالسلطة أو الدولة (اقترابا وتأيدا وتحالفا) أو (نفورا واستعداءا وصراعا).

وعلى ما يبدوا أن هناك نمطية وتواتر تحكم طبيعة الأدوار القبلية وتسير توجهاتها ، نابعة من هياكل القبيلة وبنيتها، ومن طبيعة علاقات القرابة التي تربطها ، ومن دينامياتها ، دون أن يعني ذلك إن هناك اطلاقية ماضوية وجبرية مستقبلية تشكل فيما تشكل جمود لبنيتها وحتمية لدينامياتها .

إن الجمود الظاهر للقبيلة لا يخصها فقط بل يتعداه، أو ربما بسبب منه ، إلى الجمود في البنى الاجتماعية الأكبر وما تتضمنه من بنى فرعية محركة أو قائدة كالبنية السياسية أو البنية الاقتصادية وما تولده في تفاعلها من قيم ومحددات للرؤية والفكر والسلوك .

حينما نؤكد على عدم قدرة التشكيلات التاريخية اللاحقة للقبيلة كالأمة في مفهومها الإسلامي والامة في مفهومها القومي الحديث ، على تذويب وإلغاء القبيلة على الرغم من التعارض المبدئي في توجهات الاطر الاحدث ، إلا إن الجمود النابع من البنى السياسية المحافظة الديكتاتورية الأحادية ، والبنى الاقتصادية المتخلفة والريعية تعزز من بقاء القبيلة ولا تسهم في إضعافها بل على العكس تساهم في إنعاشها والتعكز عليها في بناء مشروعها السياسي ، فالجمود المتأصل للبنى السياسية يشكل عقبة في تفتيت القبيلة والبناء على انقاضها هيكلا حداثيا .

وهنا نجد دائما في إطار البنية السياسية من يعيد توظيف القبيلة ونعراتها وعصبيتها لغايات تتعلق بالاستحواذ الأحادي للسلطة وغاية تجميع القوة الذاتية للسلطة في مواجهة خصومها من خلال قاعدة تفتيت الآخرين واستعداء بعضهم على البعض وسياسية الإيحاء بالتقريب للسلطة آو الإبعاد عنها .

الدور السياسي للقبيلة أو علاقة القبيلة مع الدولة جاء عبر الفترات التاريخية متأرجحا بين الخروج على الدولة إلى الولاء لها والعنصر الأساس في تحديد موقع القبيلة في هذه المعادلة هي قوة الدولة نفسها ، ففي فترات ضعف الدولة وارتخاء قبضتها تكون القبيلة اقرب إلى العصيان والإحساس العالي بوجودها وكينونتها دون أن يصل ذلك الوجود والإحساس إلى درجة أن تنافس الدولة أو تكون هي بذاتها دولة ، ومفعول الانقسامية هنا الذي ينحو إلى التقسيم إلى عشائر

وأفخاذ وبطون أساس في عدم قدرة القبيلة أن تصبح دولة جامعة للقبائل الأخرى ، ولم يتوفر أنموذجا للقبيلة الدولة في العراق ، وربما كانت هناك محاولات لهيمنة قبيلة على الدولة ، ولكن تلك المحاولات لم تكن نابعة من آليات قبلية وهيمنة تلك القبيلة وتمددها بفعل عوامل موضوعية كقوة القبيلة نفسها قياسا إلى القبائل الأخرى، وبالتالي إخضاعها ، بل إن تلك المحاولات كانت عبارة عن نزوع رأس الدولة (التي تشكلت بعوامل حزبية وانقلابية لم تكن للقبيلة دور فيها) إلى قبيلته لأغراض أمنية بحتة .

الدينامية الانقسامية أساسية في القبيلة التي تنشطر دائما إلى عشائر ثم بطون وأفخاذ وهو المسار الشائع الذي تستثمره الدولة في فترات ضعفها لخلق توازنات تمكنها من السيطرة والبروز ثانية كشكل مهيمن وقوي .

القبيلة كوحدة أساسية وأولية تخترق الأشكال الدينية والطائفية ، والدينامية الانقسامية في حركتها كانت جوهر الحراك الامريكي في تفتيت الفضاءات الطائفية لعراق ما بعد الاحتلال ، وجوهر حركة رئيس الوزراء نوري المالكي في تبني مجالس الإسناد العشائرية التي تمكنه من إضعاف خصومه السياسيين الذين يمتلكون ميلشيات مسلحة ، وتمكنه حسب رؤيته المعلنة من تأسيس دولة تتجاوز الاصطفافات الطائفية والقومية ، ويبدوا أن هذا الجوهر مدرك من قبل خصومه السياسيين الذين يعارضون هذا التوجه رغبة منهم في الحفاظ على الأسس الطائفية التي تمكنهم من الإبقاء على مصالحهم وحصتهم في الدولة.

القبيلة عند البعض ما زالت مقولة هامشية وتراث من العصبية والجهل والماضوية السلبية ، دون أن يحاول هذا البعض تجاوز مفاعيلها السلبية من خلال فهم آلياتها، وخصوصياتها، والعوامل الموضوعية المطلوبة للانتقال بها إلى بنى حداثوية ، والاكتفاء فقط بنقدها سطحيا وذمها ، وكأنها بناء من خارج الواقع والتاريخ والفعل المؤثر ، وهذا الترفع الحداثوي والاستنكاف لم يغيير ولن يغيير .

القبيلة بمفعولها وانفعالها ، بتاريخها وحضورها ، بدينامياتها وخصوصياتها ، بالأدوار التي قامت بها والأدوار التي قامت عليها ، ما زالت بحاجة إلى دراسات معمقة تتجاوز المحاولات الفردية أو التوصيفية ، دراسات تدخل في عمق البنية القبلية واكتشاف العلاقات التي تسيرها والعلاقات التي تربطها مع البنى الأخرى .

المصادر

1- القران الكريم سورة الشعراء، الآية، (214).

2- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ،مقدمة ابن خلدون ،دار الجيل ، بيروت.

3- احمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم الابياري، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت،.1982

5- اليزابث بيرغوين ، جيرترووود بيل من أوراقها الشخصية ، ترجمة نمير عباس مظفر ، بيروت ،.2002

6- حنا بطاطو، العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قبام الجمهورية ، ترجمة عفيف الرزاز ،مؤسسة الأبحاث العربية،الطبعة العربية الثانية ، 1995 ، بيروت .

7- زكي خيري، ملاحظات أولية عن الإصلاح الزراعي المنشود في العراق، مطبعة الشعب، بغداد، 1974 .

8- سالم لبيض ،من اجل مقاربة سوسيولوجية لظاهرة القبيلة في المغرب العربي، "المستقبل العربي" (مجلة)،بيروت، السنة الثامنة والعشرون ،العدد 261 .

7- سليم الوردي (الدكتور)،ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر ،سلسلة كتاب الصباح الثقافي ،العدد 15،بغداد ، .2009

8- شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، الجزء الأول، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت ،.1982

9- كمال مظهر احمد (الدكتور)، كركوك وتوابعها حكم التاريخ والضمير، الجزء الأول، مطبعة رينوين.

10- ليث عبد الحسين الزبيدي، ثورة 14 تموز 1958 في العراق.مكتبة اليقظة العربية ، الطبعة الثانية ، بغداد ،.1981

11- ليليا بنسالم وآخرون، الانتربولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال، الدار البيضاء، .1988

12- محمود أمين العالم، مقدمة ابن خلدون: مدخل ابستمولوجي، "الفكر العربي" (مجلة)، القاهرة، السنة الاولى، العدد 6، تشرين الثاني، .1978

13- محمد أمين زكي ،خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى ألان،ترجمة محمد علي ،مطبعة السعادة ،مصر.

14- محمد جابر الأنصاري (الدكتور)، التأزم السياسي عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام مكونات الحالة المزمنة، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة ،.1999

15- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي ، محدداته وتجلياته،مركز دراسات الوحدة العربية ،الطبعة الرابعة ، بيروت ،.2000

16- محمد عابد الجابري (الدكتور)، فكر ابن خلدون. العصبية والدولة. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، الطبعة السادسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،.1994

17- محمد عبد الباقي الهرماسي (الدكتور)، المجتمع والدولة في المغرب العربي، الطبعة الثالثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،.1999
18- محمد نجيب بو طالب(الدكتور)، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، الطبعة الأولى، سلسلة اطروحات الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،2002.